حسنات القرن الماضي وسيئاته

لقد تناول الانقلاب الذي طرأ على الاخلاق العامة أسلوب الطعام ايضاً فان سرعة المواصلات وسهولتها وميل الحواس الظاهرة وارتقاءها قد ابدل ضرورة الطعام بضرورة الحس الظاهر بمعنى ان الانسان رجاء ارضاء شهواته الذوقية قد تعدى حدود القناعة بان اثار الشهوات الصناعية بالتوابل الخاصة والمنبهات الداعية الى النهم حباً بالاكثار من ضروب الاطعمة والملاذ فقد انتشر فن الطبخ واجادة الالوان في الاقطار على اختلافها من حيث الحرارة والبرودة وما اختلفت كمياته وكيفياته . كل ذلك لتحقيق شهوات النفوس واذواق السكان في انواع الطعام دون النظر الى ما يحول دون ذلك من عدم الملاءمات الشخصية والمكانية مع هذه الطريقة في التغذية المختلفة الالوان والاشكال . وما اصدق ما قاله احدهم من ان ما نتناوله اليوم من الاطعمة ينقسم الى ثلاث درجات احدها لضرورة الغذاء وثانيها لضرورة الذوق وثالثها توقعاً للامراض التي تصيبنا في المستقبل . وقال شيشرون الخطيب الروماني: لقد احدث الشره من المصائب اكثر مما احدث الحرب فانه مصدر كثير من الاوصاب والادواء . فارباب الشره مستسلمون لعاداتهم في طعامهم وشرابهم بحكم الذوق لا بحكم الضرورة ولذلك تراهم عرضة لكثير من الامراض ومنهم من يغتر بما يكرعه من المياه المعدنية في فرنسا والنمسا (في فيشي وكارلسباد) وسائر البلاد التي تنبجس فيها امثال تلك المياه فترى في كل سنة يزور كلاً من تينك البلادين زهاء خمسين ألف زائر ويغرهم تسهيلها الهضم معهم حتى اذا رجعوا الى أهلهم قريرة أعينهم بما شاهدوه من التحسن في صحتهم يعودون الى سالف عاداتهم من النهم والبطنة « والبطنة كما قيل تأفن الفطنة » فيندمون

على ما فرطوا في جنب معدهم ولكن بعد ان يسبق السيف العذل

وان السواد الاعظم من العاملين الذين يتألف منهم جيش المجاهدين في الحياة ليقضون النهار في اماكن محصورة بعضهم في مصنع وآخر في غرفة عملهِ وفريق في مكتب وغيرهُ في مخزن وكلهم يعملون بلا انقطاع بايديهم او بعقولهم فيصرفون جميعاً جزءاً عظيماً من قواهم الطبيعية والعقلية ولا يتناولون اطعمتهم في اوقاتها ولا يرتاحون بعد غذائهم راحة كافية لتعمل الاعضاء الهاضمة عملها ولا يألفون من انواع المسليات غير اماكن القهوة ودور التمثيل فيستنشقون هواء ملوثاً باكسيد الكربون وحامض الكربون وغيرهِ من الهواء المنبعث من تضايق مئات من الانفاس المجتمعة في اماكن مغلقة يعوزها الترويح والهواء النقي المستنشق مما يؤدي بمن يختلفون الى تلك المحال الى اختلال احوال الهضم والبنية والقوة وتكون ابدانهم مرتعاً خصيباً لجراثيم الامراض وفي مقدمتها السل

وما جاء بهِ هذا القرن من الاعمال العلمية والعقلية والطبيعية قد اثر في محيط الناس كل التأثير وخصوصاً في الغذاء والمجموع العصبي . وما احلى ما قالهُ ارسطو من ان الانسان يريد امتاع حواسهِ ويبحث عن اسبابهِ اذ من الملذ للباصرة ان تنظر وللسامعة ان تسمع وللجلد ان يمس وللسان ان يذوق وللشامة ان تستنشق

وجملة الامر ان نشوء المجتمع الانساني في القرن التاسع عشر قد جرى بقوة اجهاد المتواصل الذي اودى بحياة مئات الالوف من الضحايا البشرية وقد نبه في المجاهدين وفي اخلافهم حب الارتقاء والتهذيب العقلي بحيث دخل الفكر الانساني في دائرة من الحركة المجلة تسير ابداً الى غاية لا حد لها واهلها ابداً في قلق حرصاً على كشف اسرار الطبيعة والانتفاع بقواها المكنونة والوقوف على القوانين القائمة بها . ولئن عني الانسان بقمع جماح الطبيعة وفتح الترع وحفر القنوات وابتناء الطرق الحديدية في القفار والسهول الواسعة المتجمدة حباً بربط القارات بعضها ببعض فانهُ لم يعمل كل هذا رغبة في توسيع ميدان جهاده وزيادة في مصادر الثروة العامة والخاصة بايجاد مصارف لمصنوعاتهِ بل هناك شيء من سائق الفطرة دعاهُ ان ينقل بذور التمدن الى البلاد الشاسعة في آسيا وافريقية لانها ظلت مباينة لافكار الارتقاء والشعور الانساني وهما من خير ما انتجهُ القرن من صالح الاعمال ولكن هذا الجهاد العظيم الذي اضطرت الانسانية ان تحملهُ مدة قرن كامل قد احدث امراضاً مختلفة كما انهُ زاد الشقاء الاجتماعي واشتدت حرب الحياة بما لم يعهد لهُ نظير . نعم وقف ولاة الامر على فساد النظام الاجتماعي الحاضر وايقنوا بالحاجة الماسة الى مداواتهِ

بيدانهم تضاءلوا عن الاقدام عليهِ بداعي قلة ما لديهم من الاسباب في تخفيف نتائج حركة الارتقاء وضعف الاساس الذي يقوم عليهِ بناء المجتمع الحديث . على ان الفطرة هدتهم الى الاخذ من معارف حملة العلم في فروع المعارف الاجتماعية المختلفة والاهتداء بهديهم وخصوصاً فيما من شأنهِ ان يكون فيهِ النظافة العامة واصلاح حال الطبقة النازلة من العملة وكانت البلجيك اول الدولات التي دعت الدول الى مؤتمر صحي دولي سنة ١٨٥١ و١٨٥٢ ثم حذت فرنسا حذوها ومذ ذاك اصبحت المؤتمرات الصحية الدولية تجتمع كل سنتين في عواصم اوربا . وتنقسم هذه المؤتمرات بحسب معارف من تتألف منهم فيعنى بعضها بالمباحث المتعلقة بالامم وباحصاء حركة الشعوب العامة في كل قطر وباسباب موت الاولاد في سن الطفولية وبحفر القنوات في المدن وارواثها بماء طاهر عذب . ويعنى البعض الآخر بالامراض السارية وطرق الوقاية منها . ويدرس بعضها الانسان من حيث صنعتهُ او حفظ صحتهِ في صناعتهِ من تغيير هواء المعامل والمصانع حيث يقيم العامل ويمس بيدهِ مواد مضرة او تركيبات كيماوية تفعل فعل السموم او مواد نباتية او معدنية تخرج منها غبرة تسبب امراضاً رئوية . ويعنى بعضهم ببناء بيوت للعملة ومساكن رخيصة . ويبسط بعضهم جناح حمايتهِ على الاطفال في المدن الكبرى ويقوم على حفظ الصحة في المدارس . ويهتم بعضهم بوقاية الناس من السل والامراض الزهرية . ويبحث بعضهم في الطرق التي تحول دون انتشار تعاطي الالكحول . وبالجملة فكلهم يد واحدة يسيرون نحو غاية واحدة الا وهي درس كثير من المشكلات الصحية وتدبير الصحة العامة ليوفروا لكل مملكة سكانها ويكثروا سوادها ولينقبوا عن اسباب من شأنها ان تؤدي بالجنس البشري الى الكمال باصلاح ملكات الطبقة النازلة وتحسين غذائهم وتطهير الارض والهواء والماء استبقاء لصحة سكان المدن العظمى وتقوية للمقاومات الحيوية في الافراد ومقاومة لغارة جراثيم الامراض السارية

وبالنظر لارتفاع كلمة الاشتراكية في اوروبا اضطرت حكوماتها والطبقة العالية من علماء الاقتصاد فيها الى القيام باعمال تضمن سلامة العملة ومستقبلهم وبعنايتهم تألفت عدة جمعيات تتوخى بذل الاحسان للبائس والفقير وجمعيات متعاضدة على حب الخير . ووافقت دور الندوة والاندية السياسية في ممالك كثيرة على قوانين تقي الشيوخ والزمنى مصارع السوء وموارد الهلكة وتقوم باودهم في اوقات مرضهم ومصائبهم . ومتى عرف الناس كافة قيمة الهواء النقي والماء الجيد السائغ وما يفعلانهِ في الصحة والخطر الذي تتعرض لهُ الحياة البشرية من فساد الارض بالمواد الآلية العفنة متى عرف الناس هذا يقدرون الانطباع على الاعتدال

حق قدرهِ في اطالة الاعمار . ولا مندوحة للبشر اذا توفروا على اسباب النظافة والاعتدال ان يعنوا بتطهير الاخلاق العامة والخاصة من الشوائب وترقية الشعور الادبي في الافراد ومن مجموع هذه الصفات تتحقق نيات زعماء التمدن الحديث والداعين الى البلوغ بهِ اوج الكمال . واذا القيت رائد الطرف على ما تم في الاعوام الاخيرة ادركت ان ما انبعث في النفوس من المضاء يقوي املك في ان يتم القرن العشرون ما فات شقيقهُ الاكبر

وان ما ساعد الانسان على بلوغ درجة من الترقي فاق بها اسلافهُ في القرون الماضية هو « التعاضد والتكافؤ » فهو العمل الذي كان هامة التمدن في هذا القرن . ورمز هذا النظام: ان من الاتحاد قوة L, Union fait la force وغاية هذا التكافؤ تقوية صلات الاسرات بالمعارف الاجتماعية ومساعدة المرء العاجز عن العمل من مرض وحادث او عطلة او شيخوخة او هرم فتألفت جمعيات حديثة غايتها ان تعطي رواتب قيمانًا للحياة او في حال الوفاة وقامت بعضها باعمال خيرية وتهذيبية صناعية وبذل بعضها مجهودهُ لنشر المعارف العلمية في مدارس عملية وتأسيس خزائن كتب وحدائق للعملة وبعضها اخذت على نفسها القيام بالاعمال الصحية وتطهير المساكن وتحسين الشروط الحيوية في العملة وتعاهد بعضهم على مقاومة السل وذلك اولاً بالبحث عن اسباب الشقاء الاجتماعي ثم باحداث ملاجئ ومصاح . وتألفت بعض جمعيات للقيام بحماية الامومة والطفولة . ناهيك بان مبدأ التكافل الاجتماعي قد اشربت النفوس حبهُ في البلاد الافرنجية حتى ان فرنسا بعد ان كان فيها عام ١٨٩١ ٩١٤٤ جمعية واعضاؤها ١ ٤٧٢ ٢٨٥ ورأس مالها ١٨٣ ٥٨٧ ٤٥٠ فرنسك قد صارت سنة ١٩٠٤ ١٨٥٠٠ جمعية واعضاؤها ٣ ٧٠٠ ٠٠٠ ورأس مالها ٣٨٠ مليونًا ودخلها ٥٤ مليونًا . وكفى بانهُ تألف في شهر ابريل فقط سنة ١٩٠٤ في فرنسا ١١٧ جمعية جديدة

هذا ولا ريب انهُ ستعظم صلات التكافؤ بين مصالح الافراد ومصالح الاسرة البشرية العظمى بكثرة تلك الجمعيات الراقية وتأصل ملكة التكافل الانساني فتزيد تلك الصلات في كل يوم عن اسمهِ توطيدًا . وكيفما دارت الحال فان هذا يعد من الارتقاء العظيم في السلم الاجتماعي على حين كان معدودًا من قبل من الخيالات الباطلة ولا بد ان يأتي يوم يعد فيهِ من الضرورات للسلامة العامة . فان افتخر القرن التاسع عشر بان بسط المشاكل الاجتماعية ومثلها على بساط الوجود فمن الفروض المتحتمة على القرن العشرين ان يأتي على حلها الى عالم الشهود اه